Çanakkale Onsekiz Mart Üniversitesi
İlahiyat Fakültesi Dergisi
2017, Sayı 11
(Sayfa 7 - 25)

الأثرُ النصيُّ في الإيثارِ الصَّوتي
قصةُ النبي مُوسى (عليه السلام) في سورة النمل نموذجًا لانتقاءِ حروفِ القوة

خير الله فالح وادي*

ملخص

يهدفُ هذا البحث إلى إظهار أَثَرِ النَّصِّ في انتقاء الأصوات من حيثُ قوتها وضعفها، وذلك بإيثاره الألفاظَ التي تناسبُ حيثيتُها تلك جوَّ النص وموضوعاته، وتتحققُ هذه الدراسةُ من خلال المقارنة بين موضوعٍ واحدٍ تكرَّرَ في أكثر من موضعٍ، فالموضوعُ الذي يَرِدُ في سورة قرآنية يتأثَّرُ صوتيًا بجوِّها، فكانت قصةُ النبيّ مُوسى (عليه السلام) في سورة النمل ميدانًا لذلك، وتُمثِّل هذه الدراسة خطوةً مُتقدِّمة بالنسبة للدراسات الصوتية التي تناولت هذا الجانب على مستوى المفردة والآية والسياق.

الكلمات المفتاحية: النص، الإيثار، الصوت، أصوات القوة، قصة موسى.

Özet

Bu çalışma, güçlü ve zayıf yönüyle ses tercihlerinde metnin iz düşümünü ortaya koymayı amaçlar. Zira metin, bulunduğu ortama ve işlediği konulara uygun düşecek lafızları tercih ederken söz konusu haysiyeti göz önünde bulundurur. Bu çalışma, birden çok yerde tekrarlanan aynı konu arasında kıyaslama yapmak suretiyle gün yüzüne çıkarılmıştır. Zira her hangi bir surede yer alan konu, ses seçimi bakımından söz konusu surenin ortamından etkilenmektedir. Çalışmada Musa Peygamber'in (a.s.) Neml suresinde yer alan öyküsü alan olarak seçilmiştir. Çalışma, lafız, ayet ve siyak sibak seviyesinde bu yönü inceleyen ses araştırmalarına kıyasla iler bir adımı temsil eder.

Summary:

This research aims to show the effect of the text on the selection of sounds in terms of strength and weakness, by preferring the circumstances of words that fit their context, and subjects. This study is achieved by comparing one subject repeated in more than one place. The subject, which is mentioned in a Qur'anic verse, is influenced by its voice, as result of context, The story of the Prophet Moses (peace be upon him) in Surat Al Naml was a for specimen in this field, and this study represents an advanced step for the studies of voice that dealt with this aspect at the level of the single word, verse, and context.

المقدمة

* Doç. Dr., Çomu İlahiyat Fakültesi, e-Posta: drkhair@Çomu.edu.tr.

إن الصوت عنصر من عناصر الدلالة حاضر في التعبير القرآني، وقد تناولته الدراسات اللغوية والقرآنية قديمًا وحديثًا بمستويات مختلفة، فدرس على مستوى اللفظة المفردة ومستوى الآية ومستوى السياق، وفي هذا البحث سنعالج ذلك من مستوًى آخر، وهو النص، ونقصد بالنص السورة القرآنية الواحدة، فيقدم هذا البحث فرضية مفادها أنَّ النصَّ له أثرٌ في عناصره اللغوية ومنها الصوت، فالنص على مستوى الصوت مؤثر في المفاضلة بين الألفاظ المتشابهة أو المترادفة بسببٍ من أثرها الصوتي، فالصوتُ عنصرٌ هامٌّ في سبب انتقاء كلمة دون غيرها، فمما يلاحظ كثيرًا في القرآن الكريم أنّ موضوعًا واحدًا يردُ في سورتين مع تغير بعض الألفاظ فيهما، كلفظتي (قومه وملئه) في قصة موسى (عليه السلام) مثلًا، فنبغي هنا أنْ نلمس الجانب الصوتي في التعليل من خلال بيان أثر النص، فالنص ينتقي لفظة معينة ويفضلها على أخرى جاءت في نص آخر، لانسجام صوتها مع موضوعاته وجوه وغايته.

وينبغي علينا لنا لإثبات ذلك أنْ نسلكَ سبيل المقارنة، فنقارن بين موضوع واحد جاء في موضعين، وملاحظة الفرق بين الكلمات صوتيًا، لنجدَ أنّ النص بكونه الوحدة الدلالية الكبرى آثرَ هذا اللفظ وقصده قصدًا لاشتماله على الصوت الذي يتناسب مع جوِّه وأغراضه. وللوقوف على ذلك يجب أنْ نقفَ على ركنين: الأول: جوّ السورة وبيان خصائص موضوعاتها، والثاني: المقارنة بين ألفاظ الموضوعات المشتركة بين السورة والسور الأخرى متلمّسين الفروق الصوتية بينها، وبالتالي فإنّنا سنقف على أنّ النصَّ هو سبب تلك الفروق الصوتية، فالنص ينتقي من الألفاظ ما كان صوتها يناسب أغراضه وأجواءه، فالنص كلّة واحدة والصوت عنصر واحد من عناصر الدلالة، يوظّفُه النص بحسب أغراضه وينتقي ما يلائم الجوَّ داخله، وربما يغيب هذا العنصر في سور أُخَر، فهو عنصر من عناصر الدلالة، يستعمل حسب الحاجة، فيقصد حينًا ويهمل حينًا، فثَمَّ سور تجد فيها وفرةَ الأصوات القوية كسورة النمل مثلًا، وبعضها لا تجد فيه تلك الوفرة أو تجد وفرةً من الأصوات اللينة الهادئة.

وقد قسمت البحث إلى مبحثين، الأول منهما تنظيري والثاني تطبيقي، جاء الأول في فقرتين، الأولى تقسيم الأصوات من حيث القوة والضعف، وبيان سبب القوة في الصوت، والثانية سردتُ فيها مستويات التحليل الصوتي في الدراسات العربية ليتبين موقع بحثنا منها، والمبحث الثاني تناولت فيه الجانب التطبيقي، فحللت في الفقرة الأولى منه أجواء سورة النمل، وفي الثانية بيّنْتُ أثر النص في إيثار حروف القوة في قصة النبي موسى (عليه السلام)، ثم الخاتمة والتوصيات فالمصادر. ومنهج البحث في فكرته الأساسية قائم على منهج التحليل والمنهج المقارن، فنحلل أصوات الألفاظ المتقابلة بين الموضوعات المتوافقة ثم نقارن بينها من حيث القوة والضعف.

وأمّا سببُ اختيارِ سورة النَّمْلِ فإنّ رَصْدَ هذا الموضوع والانتباهَ له كان في هذه السورة، فالتّناسبُ المطلق بين جوِّ السورة ونخامتِه وبين طبيعة الأصوات الواردة فيها تَكَشّفَ لنا أثناء تلاوتها، فقارنْتُ بها الموضوعات المشابهة الواردة في سور أخرى ولمستُ التباين الصوتي بينها، وكانت الفكرة أنْ تكونَ الدراسة شاملةً ألفاظَ السورة، ولكن خشية الإطالة توجّهَ الاختيارُ أنْ تكونَ قصة النبي موسى (عليه السلام) عيّنةً للبحث؛ فهي واردة في سورة النمل موضع البحث، ومكررة في القرآن كثيرًا مما يتيح إمكانَ مقارنتها، ومناسبةُ طولها للبحث، ثم إنها أول قصة ورودًا في السورة وبالتالي فإنّ قصة موسى(عليه السلام) تمثل نموذجًا مناسبًا لهذا البحث.

وقد أخذ الجانب الصوتي في اللغة العربية حيزًا من الدراسات اللغوية، فقديمًا وقف ابنُ جِنّي على جوانب من الدلالة الصوتية في كتابه الخصائص وتبعه ابنُ فارس والسيوطي، وفي الدراسات الحديثة نجد إقبالًا على دراسة هذا الجانب، وتناوله ضمن مباحث الدراسات القرآنية، وربما بدأ ذلك في العصر الحديث سيد قطب في التصوير الفني، وجاءت بعد ذلك كثيرٌ من الدراسات الجامعية والبحوث الأكاديمية، وشملتْ دراساتُ الدلالةِ الصوتية مختلفَ المستويات، فنجد دراسة دلالة الحركة والمقطع الصوتي والإيقاع الصوتي كما في بحث: من ملامح الدلالة الصوتية في

القرآن الكريم للدكتور ماجد النجار، وغيره من البحوث الكثيرة في ذات المستوى، أما دراسة الدلالة الصوتية للفظ المفرد فكانت غالبة، ونجد ذلك تمثيلاً في بحث: دلالة الجرس والايقاع في المفردة القرآنية، لخالد توفيق، وكما في الفصل السادس من كتاب: الصوت اللغوي في القرآن للدكتور محمد حسين علي الصغير. مروراً بالآية وانتهاء بالسياق كما لدى سيد قطب في التصوير، وكتاب الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، للأستاذ نذير حمدان. وكتاب: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، للدكتور خالد قاسم بني دومي، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه، تناول في الفصل الرابع: الصوت وأثره في الدلالة السياقية، والإيقاع الصوتي الإيحائي في سياق النص القرآني للدكتورة جنان محمد مهدي، وبحث: الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن للدكتور قاصد ياسر الزَّيْديّ.

إنَّ الدراسات الصوتية بمستوياتها المختلفة في الدراسات العربية والقرآنية وافرة كما لاحظنا لكنها لا ترقى إلى المستوى المرجوّ لدراسة أصوات العربية من حيث أثرها الدلالي في الكلام، على مستوى السياق والنص.

أما الجديد الذي تقدمه هذه الدراسة فهو معالجة الصوت بكونه عنصراً متأثراً بالوحدة الكبرى وهي النص، فنطلق هذه الدراسة أنَّ النص هو المؤثر في إيثار لفظ ما دون لفظ آخر، وهذا اللفظ الآخر قد ورد في الموضوع نفسه في سورة أخرى، والسبب الذي نقدمه تفسيراً لذلك ونطرحه في هذا البحث هو الطبيعة الصوتية التي يتكون منها اللفظ والتي تناسب جوَّ النص وغرضه وموضوعه. والمنهج في معالجة ذلك يعتمد المقارنة بين النصوص. ولا يقف عند تحليل النص المدروس وحسب.

المبحث الأول: تصنيف الأصوات ومستويات التحليل الصوتي:

أولًا: تصنيف الأصوات:

لكل حرف كيان مستقل عن الحروف الأخرى، وشخصية مغايرة لها، ودراسة علماء العربية تلك الحروف للوقوف على مخارجها أوصلتْهم إلى أن لها صفات تُميز بينها وإن اشتركتْ في المخارج، ومن تلك الصفات اتضحت شخصيات الحروف، فصنفت الحروف بحسب تلك الصفات إلى مجاميع عديدة، تجمع بعض الحروف في صفات وتفترق في صفات أخرى، ثم إنّ الصفات نفسها صنفت وميزت، فلقد تقرر لدى اللغويين أنّ هناك صفات قوية وأخرى ضعيفة، وهذه الصفات تؤثر في الحروف قوةً وضعفًا، فما اتصف من الحروف بصفات القوة كان قويًا، وما اتصف بصفات الضعف كان ضعيفًا. وعليه فقد قسمت أصوات العربية إلى أصوات قوية تمتاز بقوة الجرس، وأصوات ضعيفة هادئة، وأصوات متوسطة بين هاتين الصفتين، وقد درس علماء العربية هذا الجانب من الأصوات أعني القوة والضعف فيها.

قال في الرعاية: (والشدة من علامات قوة الحرف، فإذا كان مع الشدة جهر وإطباق واستعلاء فذلك غاية القوة في الحرف، لأن كلَّ واحدة من هذه الصفات تدلُّ على القوة في الحرف، فإذا اجتمع اثنتان من هذه الصفات في الحرف أو أكثر فهي غاية القوة كالطاء، فعلى قدر ما في الحرف من الصفات القوية كذلك قوته، وعلى قدر ما فيه من الصفات الضعيفة كذلك ضعفه)[1]

وصفات الرخاوة والهمس واللين والانفتاح من علامات الضعف لأنها صفات ضعيفة، فإذا كانت في حرف كان ذلك الحرف ضعيفًا، وصفات الاطباق والاستعلاء والشدة والجهر والصفير من علامات القوة لأنَّها صفات

---

[1] القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان- الأردن، الطبعة الثالثة 1417-هـ -1996م، ص117-118.

قوية، فإذا كانت في حرف كان ذلك الحرف قويًّا، وتكون القوةُ والضعفُ في الحرف متفاوتين بحسب عدد تلك الصفات فإذا كثرت زادت القوة أو الضعف فيه[2].

ومثال ذلك صفةُ الصفير فهي من صفات القوة، للزيادة التي فيها، وهي موجودة في حروف الصفير الثلاثة (ص، ز، س)، فأقواها الصاد لوجود صفتي قوة غير الصفير وهما الاستعلاء والإطباق، ثم الزاي بسبب الجهر، ثم السين بسبب صفتي الهمس والاستفال[3]، وهما من صفات الضعف.

عِلّة القوة والضعف:

بعد أنْ ذكر المالقي انقسام الحروف الى قوي وضعيف بيَّنَ سبب تلك القوة، وردَّه إلى وجود زيادة في الحرف على غيره، وبيَّنَ أنّ تلك الزيادة هي بعض صفات الحروف، فيحكم للحرف بالقوة إذا اتصف بصفة من تلك الصفات وإلا فهو ضعيف.

قال المالقي: (اعلم أنّ الحروف تنقسم إلى القوي، والضعيف. وأعني هنا بالقوة أن يكون للحرف زيادة على غيره، فيقال: إنّه أقوى من ذلك الغير، وتلك الزيادة تكون: الإطباق، والاستعلاء، والصفير، والاستطالة، والتفشي، والتكرار، والغنة)[4].

وقد انتبه علماء العربية لذلك عند دراستهم تأثير الأصوات بعضِها في بعض كما في باب الإدغام مثلًا، ففي شرح كتاب تيسير القراءات للداني يقول شارحه المالقي: (ولا يدغم الأقوى في الأضعف إلا على ضعف، وذلك لما يلزم من إبدال الحرف الأول بحرف من جنس الثاني فإذا كان الحرف الأول أقوى لزم من إبدالِه لو أُبدل إذهابَ قوته، والعرب تأبى ذلك في فصيح كلامها. وإذا كان الأولُ أضعفَ لزم من إبداله تقويته، وهو القانون المستعمل والقياس الجاري)[5].

أقسام الحروف من حيث القوة والضعف[6]:

ولضبط ذلك وجب أنْ توضعَ الحروفُ في أقسام حسب قوتها وضعفها، وهناك تقسيمات فصلت كثيرًا في هذه الحيثية فأوصلت الأقسام إلى خمسة: أقوى وقوي ومتوسط وضعيف وأضعف[7]، غير أننا نكتفي بوضع الحروف في قسمين:

1 -الحروف القوية: (ط-ج-د-ب-ر-ق-ظ-ض-ص) وأكثرها قوة حرف الطاء، لأن لها ست صفات، كلها قوية، وليس لها صفة واحدة من صفات الضعف.

2 -الحروف غير القوية، وهي المتوسطة والضعيفة: وهي باقي الحروف، وأضعفها الهاء، لأن صفاتها الست كلها ضعيفة وليس لها صفة واحدة من صفات القوة.

فالمحصلة أنّ الحروف تكون قويَّة إذا توفرت صفات قوة فيها، وفي المبحث التطبيقي من البحث سنقف على وفرة حروف القوة في الألفاظ التي أُوثر استعمالها في سورة النَّمل، ونجد أنَّ هذا الإيثار كان استجابة للوحدة الأكبر في التعبير وهي النص.

---

[2] ينظر المصدر السابق 119-120.

[3] ينظر المصدر السابق 124.

[4] المالقي، أبو محمد عبد الواحد بن محمد، الدر النثير والعذب النمير شرح كتاب التيسير للداني في القراءات، تحقيق: عادل أحمد وعلي محمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1424هـ-2003م، ص187.

[5] المصدر السابق 187.

[6] العبد، فريال زكريا، الميزان في أحكام تجويد القرآن، دار الإيمان القاهرة الطبعة الثانية 2010م، ص 89-90.

[7] ينظر المصدر السابق: 89.

ثانيًا: مستويات التحليل الصوتي:

بَيْنَ الصوتِ والمعنى علاقة قد لوحظت ودرستْ، ونسرد هنا مستويات النظر إلى الصوت والمعنى، ولرصد علاقة صوت الكلمة بالمعنى يمكن أن نضع له تقسيمًا من حيث جهة النظر ومستوى دراستها فنجد أن لها أربعة مستويات، وهي الصوت المفرد، والكلمة المفردة، والعبارة أو الآية، والسياق[8]:

1- الصوت المفرد: دلالة الصوت المفرد وأثره على المعنى:

بعض الدراسات تناولت دلالة الصوت قبل أن ينسبك ضمن كلمة واحدة مع أصوات أخرى، فالصوت المجرد له دلالة قائمة به حتى قبل أنْ يأتلف مع أصوات أخرى ليشكل لفظًا مفردًا، فقد أثبتوا ذلك وأقاموا عليه دراسات مستفيضة بينت وأظهرت إحدى أهمِّ خصائص العربية.

فقد وضع عبد الله العلايلي جدولًا للأبجدية يوضح فيه معاني الحروف المفردة: (1: الهمزة: يدل على الجوفية، وعلى ما هو وعاء للمعنى، ويدل على الصفة تصير طبعًا.2: الباء: يدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغًا تامًا، ويدل على القوام الصلب بالتفعّل. الخ.)[9].

ويقول حسن عباس: (قد جاءت الكلمة العربية إرثًا عن مراحل غابِيّة ثم زراعية ثم رَعَوِية شعرية فتحول كلُّ حرف من حروفها بفعل تعامله مع الأحاسيس والمشاعر الإنسانية طوال آلاف الأعوام إلى وعاء من الخصائص والمعاني، فما أن يعيها القارئ أو السامع حتى تتشخص الأحداث والأشياء والحالات في مخيلته أو ذهنه أو وجدانه، وبذلك ينوب الحرف في العربية عن الكلمة وتنوب الكلمة عن الجملة)[10] .

الحروف العربية مشحونة بشتى الأحاسيس والمشاعر الإنسانية مما جعل الكلمة العربية بهذه الطاقة الذاتية تشخص الأحداث والمسميات والحالات الوجدانية في مخيلات سامعيها وأذهانهم.[11]

وأخيرًا ظهر المعجم الاشتقاقي المؤصل للدكتور محمد حسن جبل، الذي أثبت في مقدمة كتابه أنَّ لكل صوت دلالة خاصة به وضعها تحت فصل: المعاني اللغوية للحروف الألفبائية في اللغة العربية[12]، وأوضح المنهج الذي اتبعه في بيان ذلك، ثم ألحق بكل جذر تحليلًا صوتيًا مأخوذًا من مجموع ألفاظ الجذر.

وهناك من لا يرى ذلك ولا يوافق عليه، فهو لا يرى دلالة للصوت المجرد: (ورؤية الأمر الحقة أنَّ الدلالة الصوتية وإنْ أسهم الحرف بشكل واسع في مدّ محتوياتها، إلا أنَّ التتابع الصوتي وتنوعاته داخل تيار الكلام يوجهان بنيتها، وهي تخضع لما يمنحها المتكلم من قدرة وديناميكية داخل التركيب. وثمة أمر آخر، أنَّ الصوت المفرد لا قيمة له مستقلًا عن السياق، وإن كان يمثل الأصل في الدلالة)[13].

وهذا كلام لا يحمل ردًّا علميًا أمام الحجج والدراسات التي تقدم كل يوم لتثبت أنَّ تلك الخاصية قارة ثابتة لأصوات العربية، وساقوا لها أمثلة كثيرة، بل قدم الدكتور محمد حسن جبل ذلك من خلال معالجة تطبيقية لما يقارب

---

[8] لا ينبغي هنا أن نتعقب هذه المستويات تاريخيا، بل نرصد مستويات الدرس الصوتي ونبينها بإيجاز.

[9] علي، أسعد أحمد، تهذيب المقدمة اللغوية لعبد الله العلايلي، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق الطبعة الثالثة 1985، ص64.

[10] عباس، حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 1998، ص 17.

[11] المصدر السابق 22.

[12] جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة،1/ 25.

[13] عبد الجليل، عبد القادر، علم الصرف الصوتي طبعة أزمنة، 1998، ص 152.

من 2300 ألفين وثلاث مئة مادة لغوية شملتْ جميع كلمات تلك المواد[14]، ويكفي ذلك في إثبات تلك الدلالة للأصوات.

2- مستوى علاقة الصوت بالمفردة الواحدة:

ونعني به أنْ يتّفقَ الصوت مع معنى الكلمة، فيكون مناسبًا لمعناها. إنّ النظر إلى اللفظ من هذه الزاوية وهي زاوية الدلالة الصوتية للكلمة المفردة في نفسها نجده واضحًا عند (ابنِ جنّي) فقد رصد انسجام الصوت مع المعنى ونبه إلى أنَّ دلالة الكلمة على معنى يقتضي تغيير الصوت على حسب قوة المعنى في الكلمة فما كان من المعاني شديدًا قويًا فالمناسب له صوت يمتاز بالقوة والغلظة، فالمعنى العام في كلمتين أو أكثر واحد، ولكن فيه درجات من الشدة متفاوتة، وللتعبير عن هذه الدرجات المختلفة فإنّ خير أسلوب لذلك هو تغيير صوتٍ واحدٍ يناسب قوة المعنى أو ضعفه، فيبقى المعنى العام ملاحظًا في كلِّ كلمة من الكلمتين، ولكنه يتأثر بالصوت فالصوت القويّ يوحي بقوة المعنى ويناسبه، والصوت الضعيف يناسب المعنى غير الشديد.

يقول في كتابه الخصائص: (فأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج مُتْلَئِبٌّ عند عارفيه مأموم، وذلك أنَّهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذون عليها. وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره، من ذلك قولهم: خضم، وقضم، فالخضم لأكل الرطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس، نحو: قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك.. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث. ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه: (فيهما عينان نضاختان)[15]. فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه)[16].

ويقول في مكان آخر: (ومن ذلك أنّهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل، فقالوا كسّر قطّع فتّح غلّق وذلك أنهم لمَّا جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل)[17].

وأفرد السيوطي بابًا في كتابه المزهر وعنونه بـ (مناسبة الألفاظ المعاني) وقال بعد أنْ مثّل لذلك بمجموعة من الألفاظ: (فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملًا أو صوتًا، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملًا وأعظم حسًا)[18]. ويلاحظ أنّ السيوطي يصرح بأنّ مردّ ذلك إلى صفات الحروف، فالحروف الضعيفة المهموسة واللينة والخفية تناسب الأدنى والأقل والأخف من المعاني، والحروف القوية والمجهورة والشديدة تناسب المعاني الأقوى والأشد.

يقول السيوطي في علاقة اللفظ باللفظ والمعنى: (ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى: الأول أنْ تكون الألفاظ يلائم بعضُها بعضًا بأنْ يُقْرَنَ الغريبُ بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة، والثاني أنْ تكونَ

---

[14] المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/ 12.

[15] سورة الرحمن: 66

[16] ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، المكتبة العلمية، بلا تاريخ، 2/ 157-158.

[17] المصدر السابق 155/2.

[18] السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 1998م، 44/1.

ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد فإنْ كان نفخمًا كانت ألفاظه نفخمة أو جزلًا فجزلة أو غريبًا فغريبة أو متداولًا فمتداولة أو متوسطًا بين الغرابة والاستعمال فكذلك)[19].

ومن هذا في القرآن الكريم كثير، ومنه (يَصْطَرِخُونَ) مثالًا في قوله تعالى: (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) فاطر:37

فالاصطراخ: الصياح والنداء بالاستغاثة، افتعال من الصراخ، قلبت التاءُ طاءً لأجل الصاد الساكنة قبلها، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين، يوافق الصاد في الاستعلاء والانطباق، ويوافق التاء في المخرج[20].

فتوحي هذه اللفظة المعبرة عن الصراخ بصيغة الافتعال أنَّ الصراخ قد بلغ ذروته، والاضطرابَ قد تجاوز مداه، والصوت العالي الذي يخرج مِمَّنْ فَقَدَ الصبر على الألم وفَقَدَ الأمل بالاستجابة، فقد وصل اليأس أقصاه، فالصراخ في شدة إطباقه وتراصف إيقاعه من توالي الصاد والطاء، ثم الراء والخاء، ثم الترنم بالواو والنون يمثل لك رنة هذا الاصطراخ وقوته[21].

3-**مستوى علاقة الصوت بالعبارة أو الآية:**

ونعني به أنْ يتفق صوت المفردة مع معنى الآية، أو مع مقطع من عدة آيات، فيكون الصوت في كلمة منسجمًا مع معنى الآية وموضوعها، فمن ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ) النساء: 72. فعندما تقرأ الآية فإنّك تَجِدُ (صورة التبطئة في جرس العبارة كلها وفي جرس (ليبطئَنَّ) خاصة، وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها)[22].

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) الفتح: 10، والذي نعنيه هنا القراءة بضم الهاء في (عليهُ)، وهي قراءة حفص، فقد قرأ حفص بضم هاء الضمير وصلًا والباقون بكسرها، فلا يخفى أنه يفخم لام اسم الجلالة وغيره يرققه [23].

قال في تفسير روح المعاني: (وقرأ الجمهور «عليهِ» بكسر الهاء كما هو الشائع، وضمَّها حفص هنا، قيل: وجه الضم أنها هاءُ هو، وهي مضمومة، فاستصحب ذلك كما في: له وضربه، ووجه الكسر رعاية الياء، وكذا في: إليه وفيه، وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة، نحو: به ومررت بغلامه؛ لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضا إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه)[24].

فعلل المفسرون هذه القراءة بأنها رواية منقولة أو بأنها توافق لهجات العرب، ولكن الآلوسي لمس الجانب الصوتي الذي أُريد منه أن يكون ملائمًا لموضوع الآية، فتفخيم لام لفظ الجلالة مقصود هنا ليناسب ثقل العهد معه

---

[19] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1394هـ- 1974م، 299/3.

[20] الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القران، دار المرتضى، بيروت، الطبعة الأولى 1427هـ-2006م، 189/8.

[21] ينظر: الصغير، محمد حسين علي، الصوت اللغوي في القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى -1420 هـ، ص 166.

[22] قطب، سيد إبراهيم حسين، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية السابعة عشرة 1425 هـ-2004م، ص 92.

[23] ينظر: القاضي، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ص 299.

[24] الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415ه-1994م، 252/13.

تعالى، وهذ إنما تحققه القراءة بالضم، فالصوت الغليظ المتحقق من تفخيم لفظ الجلالة مراد ليتحقق الانسجام مع معنى الآية ومدلولها.

4-مستوى السياق:

وقف سيد قطب كثيرًا على التناسق بين جوّ السياق وجرس الألفاظ، فالتناسق يظهر (في جرس الألفاظ ليدل هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعًا يناسب جوَّ المشهد في جميع الأحيان، فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوَّه، وتناسب أحاسيسه، وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام)[25].

وفي الفقرة القادمة سنتناول تعريف السياق في مقاربة للتفريق بين مفهومه ومفهوم النص الذي هو موضوع التحليل الصوتي في هذا البحث.

5-مستوى النص: وهو المستوى الذي نقدمه إضافة لمستويات دراسة الصوت الأربعة السابقة فنتناول الصوت من حيث تأثير النص في إيثار الألفاظ بسببٍ من صوتها.

دراسة الصوت على مستوى النص (موضوع البحث):

ونعني به علاقة الصوت بالنص (السورة) وهو موضوع البحث، وذلك بأن تكون الألفاظ في النص أو في عموم السورة ملبيةً لموضوعها ومنسجمة مع جوها، وهذا يبين أثر النص في اختيار الألفاظ ذات الأصوات التي تناسب رسالته وغرضه، وهو ما سنتكلم عنه في بحثنا هذا.

ومما يلاحظ أنّ جهود العلماء في البحث الصوتي كانت في المستويات الأربعة السابقة، أمّا المستوى النصي، وهو أثر النص في الأصوات من حيث الانتقاء-انطلاقًا من أنّ النص هو الوحدة الدلالية الكبرى-فلم أجد دراسة تتناول هذا الجانب فيما اطلعت عليه.

ونبغي هنا أن نبحث في ذلك لنقف على أثر النص في تفضيل كلمة على أخرى بسبب صوتها، فنفترض أنَّ دلالة الصوت فيها تلبي غرض النص، والطريق إلى دراسة ذلك يمرُّ بخطوات أولها: معرفة جو السورة من خلال النظر إلى موضوعاتها وفقراتها، ثم المقارنة بين الموضوعات المشتركة بين السورة والسور الأخرى؛ للوقوف على الفروقات الصوتية.

هذا وإنَّ دراسة الصوت من حيث الأثر النصي هي غير دراسته من حيث أثر السياق؛ فالسياق اللغوي يولد داخل النص، والنصُّ هو الوحدة الكبرى على مستوى اللغة، وهذا يتطلب التفريق بين السياق والنص:

السياق والنص:

وممّا لا بدَّ منه أن نَفْصلَ بين مفهومي النص والسياق لأنه أحيانًا ربما يفهم أنَّ السياق بوجهٍ أو بآخر يفهم منه أنه رديف لدراسة النص، أو أنّ السياق هو المرحلة الأخيرة للدراسة والتحليل التي تدخل تحتها سائر العناصر الدلالية الأخرى، والأمر ليس كذلك، لذا يجب أنْ نتناول ذلك بفقرة موجزة:

تعريف السياق: (بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه، بناء كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة. ودائما ما يكون سياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوءًا لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها. وكثيرًا ما يغير المحيط الذي توجد فيه العبارة من المعنى الذي كان يبدو واضحًا في العبارة ذاتها أو يوسعه أو يعدله)[26]

---

[25] قطب، سيد إبراهيم حسين، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، 1427هـ -2006م، ص47.

[26] فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، الجمهورية التونسية، الطبعة الأولى، 1986، ص 201-202.

مما سبق نجد أنَّ السياق له أكثر من وجود، فله وجود خارجي عن النص وهو بيئته ومحيطه وقرائنه، ولا شك هذه مؤثرة في النص، ووجود داخلي وهو سياق الكلمات والجمل والتركيب والمحيط اللغوي الذي توجد فيه العبارة، ولا شك أنَّ السياق من هذه الحيثية يكون جزءًا من النص ويولد بولادة النص فلا يكون حاكمًا عليه، ولا يكون المرحلة الأكبر في التحليل، بل النص هو البنية اللغوية الكبرى والمرحلة الأبعد في الدرس والتحليل.

تعريف النص: هناك تباين كبير بين دارسي النص في بيان مفهوم النص، ويتأتى هذا من اختلاف المنطلق والفكر، فهو مفهوم مرَّ بمراحل من التطور في استظهار حقيقته وأخذ لذلك زمنًا طويلًا وما زالت الدراسات تضيف إليه وتجليه، فمن تلك التعريفات: النص (نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلٍّ واحد وهو ما نطلق عليه مصطلح النص)[27].

إنّ فكرة البحث في النص في الدراسة النصية تنظر إلى النص ككل وليس الجملة أو أجزاء النص أو المتواليات الجُملية، ومن ثَمَّ يقوم بناء القواعد على التكوينات الكلية التي يمكن أن تتجزأ إلى عناصر ومكونات صغرى في مراحل التحليل، إلا أنَّ هذا لا يعني استقلال الأجزاء، بل تظل العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء والوحدة الكلية موضوعة باستمرار نصب عين الباحث في النص.[28]

ومهما تعددت تعريفات النص وتباينت، فإنها بجملتها قد تناولت مختلف العناصر التي يجب توفرها في الكلام حتى يكتسب صفة النصية، ويمكن إيجاز جملة العناصر التي ذُكِرَتْ في مختلف التعريفات والدراسات بأنَّ النص: هو كل كلام متصل ذو وحدة جليّة تنطوي على بداية ونهاية، ويتسم بالتماسك والترابط، ويتسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة، وبين بداية النص وخاتمته مراحل من النمو القائم على التفاعل الداخلي، وهذا التفاعل يؤدي بالنص إلى إحداث وظيفته التي تتمثل في خلق التواصل بين منتج النص ومتلقيه.[29]

ونحن نعني بالنص هنا السورة القرآنية بتمامها، ويصدق عليها ما سبق أعلاه من كون النص كلامًا متصلًا له بداية ونهاية ومتماسكًا ومترابطًا ومنسجمًا. إلخ.

وعند التحليل الصوتي لجزء من أجزاء النص نسلط النظر على النص عمومًا لنرى التوافق بين النص وبين كل جزء من أجزائه صوتيًا، وهنا تفترق هذه الدراسة عن مفهوم السياق عمومًا وعن السياق اللغوي الصوتي بالأخص.

فالسياق اللغوي بكل أجزائه النحوية والصرفية والصوتية يمكن أن يجزَّأ داخل النص وتتعدد مستوياته ويتغير أثناء النص فتكون له أطوار متغيرة، أما النص فهو كلام متصل له بداية ونهاية، وهذا تفريق بينهما من حيث الإطار، فالنص له حدود شاخصة ملموسة بخلاف السياق الذي يكون ذائبًا داخل النص مع إمكانيته على التعدد والتجزؤ.

ولا ينبغي لنا أن نلج في الخلاف الشائك في تحديد المفهوم الأدق للنص، فيكفينا منه ما يظهر الفرق بينه وبين السياق، ويكفينا مؤونة ذلك أيضًا أنَّ ما نعنيه بالنص هو السورة القرآنية التامة، فهي كيان مستقل لها إطارها وشخصيتها المنطبعة بطابع متفرد مختلف عن السور الأخرى.

وبالعموم فإنَّ النص كلمة، وكيان واحد مترابط متكامل، أما السياق فهو مجرى الكلام داخل النص وكلّته، وبهذا يظهر أنَّ النص ظرف للسياق، والسياق طريق ومسلك ومنهج لكشف جريان النص وبنائه، فالسياق ليس مادة

---

[27] الأزهر، الزناد، نسيج النص (بحث ما به يكون اللفظ نصًا)، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ص 12.

[28] بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مكتبة ناشرون بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ص 100.

[29] العموش، خلود، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، 1429-2008، ص 22.

لغوية ولا آلة ولكنه نظام داخلي يظهر بوجود النص، بل هو كالنظارة التي نرى بها ظروف النص وعلل اختياراته. والسياق يولد داخل النص فهو محكوم به، غير حاكم للنص، على الأقل السياق اللغوي.

فنحن نرى أنّ النص ـ من حيث كونه نصًّا كاملًا ـ وحدةٌ مؤثرة في ما ورد فيه من ألفاظ، بحيث أنّه يفضل من الألفاظ ما ينسجم صوتيًا مع ما ورد فيه من صور وموضوعات، فنبغي هنا أن نلمس أثر النص في اختيار لفظ في حين أنّ نصًّا آخر يختار لفظًا آخر مقاربًا له في الدلالة العامة ولكنه إنما فضل ذلك اللفظ بسبب صوته، فبحثُنا قائم على المقارنة بين النصوص وملاحظة أصوات القوة في الألفاظ، لا على التحليل اللغوي للنص الواحد من خلال الذوق وحسب، فنقارن بين النصوص التي فيها تشابه في الآيات والمواضيع غير أنها تختلف بلفظ واحد، فالمقارنة بين ألفاظ سورة بعينها مع ألفاظ سور أخرى تشابهها في موضوعاتها التي ترد فيها تظهرُ لنا تباينًا صوتيًا في ألفاظهما، وهذا ما أطلقنا عليه الإيثار الصوتي، فهذا الإيثار يقف وراءه النص، فالنص هو الوحدة الكبرى التي تؤثر في ذلك بهدف ترابط معاني النص وأغراضه مع أجزاء بنائه، وهي الكلمات بما فيها من أصوات، وقد رأينا كيف تمتاز الأصوات من خلال صفاتها، فصفات الحروف لها أثر دلالي، فصفة القوة في الصوت تكون أحيانا مقصودة ومطلوبة، فالنص الذي يثير جوًا من الفخامة ويصف صورة لشيء عظيم وجليل فلا بد أن يُفَضِّلَ كلمات في أصواتها قوة تناسب هذه الفخامة والقوة، فمن السور ما يناسب غرضها ومقصدها والصور الواردة فيها وجوَّها العام كلماتٌ تمتاز بالقوة، كسورة النمل مثلًا، وهي موضوع بحثنا، ومنها ما يناسب غرضها ومقصدها والصورَ الواردةَ فيها وجوَّها العام كلمات تمتاز بالليونة.

المبحث الثاني: الإيثار الصوتي في سورة النمل:

هذا المبحث هو الجانب التطبيقي من البحث لنستجليَ أثر النص في الانتقاء الصوتي، فنبدأ ببيان جوِّ سورة النمل وموضوعاتها وإبراز مظاهر القوة فيها، ثم بيان أثر ذلك في إيثار الأصوات المناسبة لجوه وسياقه وأغراضه من حيث القوة، ذلك أنّ موضوعات سورة النمل كما سنرى تتطلب أصواتًا قوية، وهو ما سنبينه من خلال فقرتين:

أولاً: مظاهر القوة والفخامة في سورة النمل:

ذكر البقاعي أنّ المقصود من هذه السورة هو إظهار العلم والحكمة[30]، وكذلك قال سيد قطب في الظلال: (والمتأمل في السورة يجد أنها ركزت على علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة) [31].

غير أنّنا يمكن أنْ نلحظ بوضوح المشاهدَ المليئة بالقوة والفخامة والجلال ونفاذ الأمر وسرعته وصرامة المنطق وشدته، فمظاهر القوة وأجواء الفخامة ظاهرة في سورة النمل ووافرة في كل أجزائها ومقاطعها، ومتتابعة فلا يكاد يخلو مقطع منها من مشهد قوة، أو فخامةِ معنى، أو غرابةِ موضوع خارق لما عهده الانسان، وسنقف هنا على تلك المظاهر ونشير بإيجاز لذلك فيما يلي حسب مقاطع السورة:

1- مطلع السورة:

في مطلع سورة النمل تبرز القوة بصورة ظاهرة ففي مفتتح السورة نجد قوله: (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) النمل: 1، ويقابله في مطلع سورة (طه) التي تكلمت عن قصة النبي موسى (عليه السلام): (طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) طه: 1-2، فحرف السين في(طس) أقوى وأوقع في الأذن من الهاء في (طه). ثم بعد الحروف المقطعة: (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) النمل: 1، فقدم القرآن على لفظ الكتاب، وفي سورة الحجر: (الر تِلْكَ آيَاتُ

[30] ينظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى 1987م، 333/2.

[31] قطب، سيد قطب إبراهيم حسين، في ظلال القران، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابعة عشر 1412 هـ، ص 2624.

الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ) الحجر:1، فقدم الكتاب على القرآن، ومعلوم ان أصوات لفظة القران أقوى من لفظ الكتاب، وتقديمه له أثر في قوة الافتتاح تتناسب مع جوِّ السورة العام.

2- قصة موسى:

من مظاهر القوة في قصة النبي موسى عليه السلام المشهد الذي حدث في بعد رؤيته النار ونزوله نحوها وسماعه النداء بأنْ بورك من في النار ومن حولها وخطاب الله تعالى له مباشرة (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) النمل:9، ثم إلقاء العصا وتحولها إلى ثعبان ثم إلى نهاية القصة، إن هذه القصة الموجزة التي استغرقت ثماني آيات مظهر بارز من مظاهر القوة والفخامة في هذه السورة، وبمقارنة عبارات هذه القصة وأسلوب الكلام فيها مع الآيات المشابهة لها في السور الأخرى نجد بوضوح قوة المعنى وسرعة التعبير عنه أكثر من السور الأخرى وتفصيل ذلك سيأتي لاحقًا.

3- قصة سليمان (عليه السلام):

إنّ مظاهر القوة عديدة في قصة النبي سليمان عليه السلام بل إنها حشدت حشدًا:

- تعلم منطق الطير والعطاء من كل شيء:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) النمل:16.
- حشر الجيش: تنوع الأجناس والعوالم فيه هو مشهد غريب؛ فاجتماع الجن والانس والطير في جيش واحد أمر غير مألوف ويدعو إلى الدهشة ويُجلّي قوةَ قائد هذا الجيش ونفاذَ أمره وهذا كله من مظاهر القوة والفخامة (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) النمل:17
- حديث النمل: نداء النملة بقومها للدخول والنجاة من التحطم والسحق تحت أقدام جيش سليمان (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) النمل: 18، فالانتقال إلى عالم النمل ونقل التحذير الذي قالته نملة منهم، مشهد غاية في الإدهاش، ثم اختيار لفظ التحطيم المؤكد بالنون المثقلة يعطي مزيدَ قوةٍ.
- تفقُّدُ القائد لجيشه من الطير ورصْدُه تخلُّفَ طائر الهدهد، واتخاذ إجراء شديد وصارم تجاه هذا المتخلف، والقسم على تعذيبه عذابًا شديدًا أو ذبحه، ثم مناقشة الهدهد وتقديم العذر، ومناقشة قضية التوحيد ورصده قوما يعبدون الشمس، ثم إرسال الهدهد إليهم (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) النمل:20-24.
- العرش: تكرار لفظة العرش، تكررت لفظة العرش خمس مرات من غير الضمائر، ووصف العرش بالعظيم مرتين (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) النمل:23، (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) النمل: 26
- الرسائل بين سليمان وملكة سبأ (خطاب الملوك): فكتاب سليمان:(إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ(30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) النمل:30-31، وورود البسملة في الآية، ثم كان جوابها أن بعثت هدية لترى كيف يكون ردُّ سليمان.
- وكون الهدهد رسولًا لسليمان عليه السلام أمر له أثر في إضفاء الفخامة والقوة (اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) النمل: 28
- كان رد سليمان حاسمًا صارمًا: (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) النمل:37.

- وهنا نلاحظ أن السورة لم تذكر في ثنايا القصة خبر الاستسلام، فبعد ردّ سليمان في الآية 37 انتقل الحديث إلى من يأتي بالعرش قبل أن يأتوا مسلمين في الآية التي بعدها مباشرة: (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ(37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) النمل:37-38، وهذا يتطابق تمامًا مع ما ندلل عليه من أنَّ السورة تُؤثِر فخامة الأجواء وقوة المعاني، والاستسلام ليس منها قطعًا، فعزف عن ذكره، لأنه سيكون نشازًا مخالفًا للسياق العام في السورة.
- نقل العرش، والعروض التي تلقاها من عفريت من الجن ومن الذي عنده علم من الكتاب، ثم ظهور العرش أمام سليمان مستقرًا عنده (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي) النمل:39-40.
- الصرح الممرد من القوارير حتى يظن من يراه أنه لجة ماء (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ) النمل: 44.

أما قصة النبي صالح والنبي لوط عليهما السلام فإنّها لا تخلو من معاني تظهر فيها القوة إلا أنّها تميل إلى جانب التأثُّر بجو السورة أكثرَ من كونها ذات مظاهرٍ مؤثرةٍ في الألفاظ؛ فلذلك نلحظ فيها الألفاظ القوية أكثر من مظاهر القوة إلا أمر المطر الذي يعهد منه الرزق والخير ولكنه كان عقابًا للاستئصال. (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) النمل: 58، ويلاحظ تكرار لفظة المطر ثلاث مرات في آية تتكون من ستِّ كلمات، فتشعر بهذا التكرار قوة حرف الطاء وطغيانه على أصوات الآية.

4-بقية موضوعات السورة:

ثم تتوالى الآيات المليئة بمعاني القوة والفخامة والشدة حتى آخر آية في السورة، ومنها على وجه التمثيل:

- حشد الآيات ورصفها في سياق كثيف للتدليل على أن الله تعالى هو الإله الحق جل جلاله وبطلان ما يشركون به: التي تبدأ بقوله تعالى: (آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) النمل:59، وتمضي حتى الآية 64.
- قوله تعالى:(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) النمل:75، معنى يحمل من القوة أبلغها.
- قوله تعالى:(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) النمل:88، مرور الجبال مرَّ السحاب من المعاني التي لا تخفى قوتها وفخامتها.
- قوله تعالى: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) النمل:82، إخراج دابة من الأرض تكلم الناس من معاني القوة والفخامة.

كل هذا يظهر قوةَ موضوعاتِ السورةِ وفخامةَ معانيها وأجوائها. وممكن أن نوجز مجمل الخوارق في السورة، وهي من الحقائق التي تتصف بالغرائب والعجائب التي تضفي على النص قوة وتؤطّره بإطارٍ من الفخامة والجلال: (حديث النمل، ومنطق الطير، جيش سليمان الشامل وحشره، الهدهد الرسول، حضور الجن مجلس سليمان، العفريت، نقل العرش بلحظ العين، الصرح الممرد، الدابة التي تكلم الناس).

فهذه المواضيع تمتاز بالفخامة، وجمعها في نص واحد من شأنه أن يبرز هذه الفخامة ويظهرها ويجليها حتى يغدو النص المليء بالصور القوية والأحداث الكبيرة كقطعة واحدة قوية فخمة، وهذا التكاثف من الفخامة والقوة يستدعي عناصر أخرى تناسبه وتجاريه في مستواه المرتفع، لذلك فمن الضرورة البلاغية والذوقية أن يُنتقى اللفظُ ذو الصوت الصاخب الشديد لتنسجم فخامة المعاني مع قوة الأصوات، فتكون صورة واحدة منسقة، تتظافر عناصرها فيما بينها لإيصال الغرض المراد من النص وبلوغ مستوى عال من التأثير.

ولإثبات هذا التظافر والتناسق بين جوّ النص والصوت ينبغي أن ندلل على الانتقاء الصوتي في النص، من خلال المقارنة بين الألفاظ المنتظمة في آيات متشابهة في موضوع واحد في نصوص مختلفة، وهو ما سنبحثه في قصة موسى عليه السلام، لننظر كيف أثرت هذه الأجواء والموضوعات على اختيار ألفاظ ذات صوت مناسب لها.

ثانيًا: أثر النص في انتقاء الأصوات في قصة موسى (عليه السلام):

1-تحليل آيات القصة:

لكون قصة النبي موسى عليه السلام متكررة في القرآن فلإبراز مظاهر القوة في هذه القصة في سورة النمل نقارن بين آياتها والآيات المشابهة لها في السور الأخرى، فمن خلال مقارنة سريعة نلحظ الفرق البيّنَ بين آيات سورة النمل في قصة موسى (عليه السلام) والآيات المشابهة لها في قضية فخامة المعنى وقوته، فآيات سورة النمل فيها مظاهر من القوة أعلى وأظهر من السور الأخرى:

نص قصة النبي موسى (عليه السلام) في سورة النمل:

(إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) النمل: 7-١٤.

- فقوله تعالى: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) النمل:7.

يقابله في سورة طه: (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) طه:10، نجد أن آية سورة النمل زادت على لفظ آية سورة طه الألفاظ:(بخبر) و(شهاب) و(تصطلون)، أما في سورة القصص، فيقول: (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) القصص: 29، فكانت الألفاظ مشابهة لكن قال فيها: (جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ) ويقابله هنا: (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) والفرق واضح بينهما، فالجذوة: الجمرة، أو قطعة من حطب فيها نار لا لهب لها، والقبس: النار المقبوسة، وشهاب قبس: شعلة نار في رأس عود[32]، مع ملاحظة الفرق الصوتي بين الكلمتين، فقوة القاف وحِدَّةُ السين تضفي قوة على اللفظة، الأمر الذي لا يتوفر في لفظة جذوة، وهنا يظهر أنَّ آية النمل كانت أكثر قوة، ثم نهاية الآية بلفظة (تَصْطَلُونَ) في النمل والقصص، ويقابله في سورة طه: (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)، وحرفا الصاد والطاء من حروف القوة؛ لذلك تجد الصوت المرتفع القوي في هذه اللفظة.

- وقوله: (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) النمل:8.

يقابله قوله تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى) طه:11، وقوله تعالى:(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) القصص:30. نجد أنّ سورة النمل استعملت الفعل (جاء) بمقابل الفعل (أتى)، ولا يخفى أنَّ صوت الجيم أقوى من صوت التاء.

- وقوله: (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) النمل:9.

---

[32] ينظر: الرازي، أبو بكر بن عبد القادر، تفسير غريب القرآن العظيم، تحقيق: حسين المالي. أنقرة 1997.ص 109.

يقابله: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) طه:14، وقوله:(أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) القصص:30. فقابل ضمير الشأن ضمير المتكلم في الآيتين، وهو يعطي للمعنى فخامة، لذلك نجد صفة العزة والحكمة، ونلمس أثر حرف الزاي بصفتي الشدة والصفير القويتين.

- وقوله تعالى: (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) النمل:10.

يقابله قوله: (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى(19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) طه19-20. وقوله: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) القصص:31.

فجاء الأمر في سورة النمل (وَأَلْقِ عَصَاكَ) وفي طه (أَلْقِهَا) وفي القصص (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) فذِكْرُ العصا أكثرُ قوة من إضمارها كما في سورة طه، ومن جانب آخر فإنّ الأمر جاء مباشرًا بلا حرف تفسير، فامتازت آية سورة النمل على آية سورة طه بذكر العصا، وعلى آية القصص بمباشرة الأمر من غير لفظ (أنْ)، وهذا يتماشى مع السرعة في قصة موسى (عليه السلام) في النمل، فالجوُّ في هذه السورة جوُّ سرعةٍ وحسم ونفاذِ أمر، حتّى نجد أنَّ سورة طه كررت لفظة (ألقها) لأن جوّها فيه تفصيل وبطء في سَرد الأحداث.

وذُكِرَ الفعلُ (تهتزُّ) في سورة النمل والقصص دون طه ويلاحظ فيه صوت الزاي بما فيه من شِدَّة وصفير، غير أنَّ سورة القصص كانت أضعف صوتيًا في الألفاظ الأخرى. فيتبين هنا لنا ثلاث درجات ومنازل في هذا الجانب: توفر الصوت القوي في السورة، توفر الصوت القوي مع الصوت الضعيف، الخلو من القوة.

وهذه الآية متوافقة تمامًا مع آية سورة القصص، غير أنّها اختلفت في أولها بخلوّها من (أنْ)، واختلفت في خاتمتها فقال في النمل: (لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، أما في القصص فقال: (أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)، ففي سورة النمل كان الحديث عن الخوف فلذلك جاء النهي عنه، ثم علل بقوله: (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) فكرر لفظة الخوف ونفى الخوف عن المرسلين فلا ينبغي لهم ذلك، أو أنَّ الله تعالى لا يقبل للمُرسَل أن يخاف، أما في سورة القصص فزاد الفعل (أَقْبِلْ) وختمت الآية بقوله : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) ، فالحديث هنا عن الأمن.

- وقوله تعالى: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) النمل:[12].

يقابله قوله تعالى: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى) طه:22، وقوله تعالى: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) القصص:32.

ذَكَرَ في هذه الآية إدخال اليد، فعبر عن ذلك في النمل بالفعل (أدخل)، وفي طه بالفعل (اضمم)، وفي القصص بالفعل (اسلك)، غير أنه في سورة طه قال: (إِلَى جَنَاحِكَ)، أما في النمل والقصص فقال: (فِي جَيْبِكَ)، والضَّمُّ: الجمعُ بين الشّيئين [33]، والسُّلُوكُ: النّفاذ في الطّريق [34]، فهما غير الإدخال، فالضمُّ هو جذب اليد الى البدن من غير دلالة على الادخال، ونتلمس ذلك من اجتماع حرفي الميم في قوله: (اضْمُمْ)، مع ملاحظة أن الميم الأولى فيه مضمومة، والضمةُ عند لفظها يجب أنْ تجمع الشفتين، والسلوك هو وصف حركة اليد باتجاه الجيب لغاية الادخال، ونتحسس من همس السين والكاف أن السلوك فيه لطافة ورِقَّة وهدوء، أما (أدخل) فهو أمر صريح بالإدخال، مع ملاحظة أن قلقلة الدال تعطي قوة للفظ.

---

[33] الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت، مادة (ضمم).

[34] المصدر السابق:421، مادة (سلك)

وقال في النمل: (وَقَوْمِهِ)، ويقابله في السور الأخرى (مَلَئِهِ)[35]، وجاءت لفظة (قوم) في سورة الشعراء، قال تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) الشعراء :10-11. ومن الواضح أن لفظ (قَوْمِهِ) أشد وأقوى من (مَلَئِهِ) لوجود حرف القاف، أما عن مجيء لفظة القوم في سورة الشعراء في قوله: (أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ)، نلاحظ أنه أُرسِل الى القوم، فلم يقل إلى فرعون وقومه، فقد يكون فرعون مضمناً ضمن القوم أو لا يكون كذلك، ولكن في سورة النمل ذكر أنَّه أرسل إلى فرعون وإلى قوم فرعون، وهذا أكثر تفصيلًا، فذِكْرُ فرعون مستقلًا أقوى من جعله فردًا ضمنَ القوم وعدم ذكره مستقلًا.

ثم نلاحظ أنَّ آية النمل ذكرت أنَّ ذلك كائنٌ مع تسع آيات (فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ)، وفي القصص: برهانان (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ)، وفي طه لم يذكر عددًا، فكُلُّ الآيات المبصرة المعبرُ عنه بالعدد تسعة يُظهرُ وفرةَ الآياتِ المرسلة مع النبي موسى (عليه السلام)، وإنَّ وصف الآيات بهذا الكم يظهر القوة في النص.

ونجد أنَّ لفظ تسع آيات مذكور في آية أخرى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) الإسراء: 101، مع ملاحظة أنَّ سورة الإسراء تكثر فيها الأصوات الغليظة والألفاظ الشديدة لما فيها من موضوعات وأخبار متصفة بالعظم والقوة، فهي من هذه الحيثية متوافقة مع سورة النمل، حتى أنّه وصف الآيات في النمل بأنها مبصرة وفي الإسراء وصفها بأنها بصائر، فقال في الإسراء: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) الإسراء:102، وقال في النمل: (فَلَمَّا جَاءَتْهُم آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) النمل:13.

- قوله تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) النمل: 14.

يقابله قوله تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) الأعراف: 103.

ففي سورة الأعراف قال: (فظلموا بها). ويقابله في النمل: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)، فاكتفت سورة الأعراف بالفعل ظلموا، أما في النمل فعبر عن كفرهم بالفعل بجحدوا، بعد تيقنهم أنّ الآيات حق، ثم بين سبب فعلهم ذلك بالظلم والعلوّ بالصيغة الأسمية دون الفعلية كما في الأعراف وهذا من دلائل القوة في آية النمل، لذلك تجد فيها أصوات الجيم والقاف والظاء في الكلمات تباعًا: جحدوا، استيقنتها، ظلمًا.

2-ألفاظ القصة ومقارنتها بألفاظ الآيات المشابهة صوتياً:

بعد تحليل أجواء سورة النمل وسياقها نجرد الألفاظ التي جاءت في آيات السور الأخرى وهي تشابه آيات سورة النمل وموضوعاتها لكنها اختلفت عن ألفاظ سورة النمل:

- **قومه وملئه**: لفظ (قومه) أقوى صوتيًا من لفظ (ملئه)؛ بسبب حرف القاف لاتصافه بصفتي الاستعلاء والقلقلة.
- **جاء وأتى**: الفعل (جاء) أقوى صوتيًا من الفعل (أتى)؛ لوجود حرف الجيم المجهور.
- **قبس وجذوة**: (القبس) أقوى من (الجذوة)؛ لوجود حروف القاف والسين والباء؛ فقلقلة القاف وجهره، وصفير السين، وقلقلة الباء وجهره لها قوة بارزة.
- **أدخل اضمم اسلك**: الفعل (أدخل) أقوى من الفعلين (اضمم واسلك)؛ لوجود الهمز والدال والخاء؛ فالنبرُ والقطعُ الموجود في الهمز يعطيه حضوراً في الأداء الصوتي على عكس همزة الوصل، وقلقلةُ الدال وجهره، واستعلاءُ الخاء وإن كان محركًا بالكسر.

---

[35] وكذلك جاء قوله: (مَلَئِهِ) في الأعراف:103، ويونس:75، وهود:97، والمؤمنون:46، والزخرف:46

- **العزيز، رب العالمين**: لفظة (العزيز) أقوى؛ لوجود حرف الزاي ذي الشدة والصفير.

وهذا جدول ألفاظ القصة في سورة النمل ومقابلها في الآيات المشابهة:

لفظ سورة النمل	مقابله	الأقوى	السبب (صوت)
جاء	أتى	جاء	ج
أدخل	اسلك / اضمم	أدخل	أ، د، خ
شهاب قبس	جذوة	شهاب قبس	ق
العزيز الحكيم	رب العالمين	العزيز	ز
قومه	ملئه	قومه	ق
جحدوا، استيقنتها، ظلماً	ظلموا	جحدوا، استيقنتها، ظلماً	ج ق ظ

مع ملاحظة هامة وهي أنّ هذه الألفاظ ذات الصوت القوي وافرة في النمل ونجد ما يقابلها في بعض السور بصوت ضعيف.

ونجد بعض السور توافق سورة النمل في توفر الكلمة ذات الصوت القوي وتخلو منه سور أخرى غير أنّ هذا السورة الثانية ذات اللفظ القوي المشابه لسورة النمل تختلفت عن الصوت القوي في الألفاظ الأخرى كما رأينا في لفظة (تهتزُّ) فهو جاء في سورة القصص أيضًا وخلت منه سورة النمل، وكذلك لفظة (تصطلون)، غير أن سورة القصص كانت أضعف صوتيًا في الألفاظ الأخرى. فيتبين هنا لنا ثلاث درجات ومنازل في السور القرآنية من حيث هذا الجانب:

1- مقاطع يتوفر فيها الصوت القوي.
2- مقاطع يتوفر فيها الصوت القوي مع الصوت الضعيف.
3- مقاطع تخلو من أصوات القوة.

وهكذا نرى أنّ قصة موسى (عليه السلام) في سورة النمل تبين لنا بوضوح أنّ ألفاظها كانت مناسبة لجو السورة بحيث إنّنا وجدنا تميزها عن ألفاظ السور الأخرى، ونعزي سبب ذلك إلى التوافق الصوتي مع جو النص العام الذي مثلته سورة النمل هنا، فالقصة هي القصة ذاتها ولكن المتغير بعض الألفاظ، وهذا التغير كان استجابة صوتية مناسبة لأغراض النص وجوّه.

إنّ قصة تتألف من ثماني آيات، ونَجِدُ أنّ ألفاظها تمتاز بالقوة عن باقي الالفاظ لذات القصة في سور أخرى وبصورة مطردة لهو شيءٌ مقصود ومراد، لما يوفر من قوة صوتية في النص تتفق مع النص في أغراضه وأجوائه.

الترادف والتباين الصوتي:

من خلال بعض الكلمات السابقة التي تندرج تحت ظاهرة الترادف نلحظ أنّ هذه المترادفات في الدلالة العامة -مع اختيارنا انتفاء الترادف في القران الكريم فـ(كلُّ لفظة من ألفاظ القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد فيه ترادفاً، بل كل كلمة تحمل إليك معنىً جديدًا) [36]- تُظْهِرُ جانباً آخر من الفوارق بين المترادفات لم يذكر في الفروق اللغوية وهو الافتراق الصوتي، فكما أن الفرق الدلالي بين المترادفات يؤثر في اختيار لفظ دون آخر، كذلك التباين الصوتي بينهما يكون مؤثرًا في الاختيار بينهما بحسب غرض النص وما ينسجم معه من أصوات تلبي جوه وسياقه، (ولا شك أن استقلالية أية كلمة بحروف معينة، يكسبها صوتيًا ذائقة سمعية منفردة، تختلف دون شك عما سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى نفسه، مما يجعل كلمة دون كلمة وإن اتحدا بالمعنى لها استقلاليتها

[36] شرف، حفني محمد، الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى القاهرة، 1970، ص222.

الصوتية، إما الصدى المؤثر، وإما في البعد الصوتي الخاص، وإما بتكثيف المعنى بزيادة المبنى، وإما بإقبال العاطفة، وإما بريادة التوقع، فهي حينًا تصك السمع، وحينًا تهيئ النفس، وحينًا تضفي صيغة التأثر: فزعًا من شيء، أو توجهًا لشيء، أو طمعًا في شيء، وهكذا.

هذا المناخ الحافل تضفيه الدلالة الصوتية للألفاظ، وهي تشكل في القرآن الوقع الخاص المتجلي بكلمات مختارة، تكونت من حروف مختارة، فشكلت أصواتًا مختارة، وهذه السمات في القرآن بارزة الصيغ في مئات التراكيب الصوتية في مظاهر شتى، ومجالات عديدة، تستوعبها جمهرة هائلة من ألفاظه في ظلال مكثفة في الجرس والنغم والصدى والإيقاع) [37].

وهنا نلمس الحاجة في البحث عن تأصيل الفرق بين الكلمتين المترادفتين أو المتقاربتين من حيث قوة الصوت، وهو نفس المسار الذي بدأه ابن جني، غير أننا نطرح هنا استكمال ذلك الرصد بحيث نقف على وضع جواب لسؤال: هل يطرد الافتراق بين المترادفات او المتقاربات في الدلالة من جهة قوة الصوت وضعفه، بحيث يكون الصوت عاملًا بارزًا وحاسمًا في بيان الفروق قوةً وضعفًا، وهذا يحتاج إلى دراسة منفصلة.

الخاتمة:

في نهاية البحث وقفنا على نتائج نجملها فيما يلي، مع المقترحات والتوصيات:

- الصوت ذو تفاعلٍ وأثرٍ حاضرٍ في جميع المستويات اللغوية بدءًا من الصوت المفرد وانتهاء بالنص التام، فهو عنصر فاعل في كل المستويات اللغوية.
- إنّ سورة النمل تختار دائمًا اللفظ ذا الصوت الأقوى في الآيات عمومًا، وهذا مناسب لجوّها وغرضها.
- هناك كلمات تدل على المعنى ذاته وهو ما يسمى بالترادف، لكن نجد تلك الكلمات تختلف بصفات حروفها قوة وضعفا، فنقول: إنَّ من أسباب اختيار كلمة بعينها دون مرادفها هو جرسها الصوتي مما يشكل تناسبًا مع السياق والجو العام في السورة وأغراضها.
- أثر النص حاضر في اختيار الأصوات، وذلك من خلال كلمات بعينها، ونجد أنه اختار كلمات أخرى في نصوص أخرى تؤدي المعنى العام نفسه ولكن بصوت آخر مختلف، فنقول: إنّ من أغراض انتقاء كلمة دون غيرها وإيثارها دون غيرها يراد منه التوافق بين موضوعات النص وبين صوت الألفاظ بغرض إظهار جمالية البناء النصي.
- الانتقاء الصوتي يظهر بوضوح البناء الصوتي أو نسميه النسج الصوتي في نصوص القرآن، فالقرآن متماسك صوتيًا ومنسوج نسجًا يظهر الانسجام بين عناصر النص من الموضوعات والسياق والأصوات.
- من خلال ما مرَّ بنا يمكن أن نقرر أنّ بناء السورة وجوها العام وخطابها وأغراضها كل ذلك يقتضي اختيار ألفاظ بعينها دون غيرها بسبب صوتها ومناسبته لتلك الأغراض والأجواء والإيحاءات في السورة، وبصيغة أخرى نقول إنَّ القران الكريم ينتقي الأصوات على حسب أجواء السور.
- يلاحظ أن هذه الألفاظ ذات الصوت القوي وافرة في النمل ونجد ما يقابلها في بعض السور الأخرى يكون ذا صوت ضعيف، ونجد بعض السور توافق سورة النمل في توفر الكلمة ذات الصوت القوي وتخلو منه سور أخرى غير أنّ هذا السورة الثانية ذات اللفظ القوي المشابه لسورة النمل تخلفت عن الصوت القوي في

---

[37] الصغير، محمد حسين علي، الصوت اللغوي في القران الكريم، ص164.

الألفاظ الأخرى كما رأينا في لفظة (تهتزُّ) فهو جاء في سورة القصص أيضاً وخلت منه سورة النمل، غير أن سورة القصص كانت أضعف صوتياً في الألفاظ الأخرى. فيتبين هنا لنا ثلاث درجات ومنازل في هذا الجانب: توفر الصوت القوي، توفر الصوت القوي مع الصوت الضعيف، الخلو من القوة.

- وهنا نقف على مسألة هامة تحتاج إلى بحث، وهي التوظيف الصوتي للموضوعات القرآنية، فكما رأينا أن سورة النمل لكونها جمعت كثيراً من الصور والموضوعات ذات الفخامة والقوة والغرابة قد آثرت ألفاظا ذات أصوات قوية، فالفكرة التي نسوقها مقترحين أنها تستقل ببحث آخر هي تناسق الموضوعات مع الأصوات، قوة وضعفاً، فنقف على الفرق بين المكي والمدني من حيث الصوت، وبين آيات التشريع و بناء المجتمع من جهة والآيات التي ناقشت الكفار وفندت ادعاءاتهم وعقائدهم، ما نراه أن طبيعة الموضوع لا تأخذ اهتماماً لقضية الصوت بشكل دائم، فأكثر ما يوظف الصوت له هي الموضوعات التي يراد لها أن تؤثر في النفس كي تزيل عنها غشاوة الجهل والتكبر عن المعاند وغشاوة القسوة والغلظة عن القريب وحتى المؤمن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415ه-1994م.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، المكتبة العلمية، بلا تاريخ.

الأزهر، الزناد، نسيج النص (بحث ما به يكون اللفظ نصًا)، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.

الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت، بلا تاريخ.

بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مكتبة ناشرون بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.

البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض الطبعة: الأولى 1408 هـ -1987 م.

جبل، محمد محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الأولى مكتبة الآداب القاهرة، 2010م.

الرازي، أبو بكر بن عبد القادر، تفسير غريب القرآن العظيم، تحقيق: حسين المالي. أنقرة 1997.

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 1998م.

شرف، حفني محمد، الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى القاهرة، 1970.

الصغير، محمد حسين علي، الصوت اللغوي في القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى،1420 هـ.

الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القران، دار المرتضى، بيروت، الطبعة الأولى 1427هـ-2006م.

عبد الجليل، عبد القادر، علم الصرف الصوتي طبعة أزمنة، سلسلة الدراسات اللغوية، 1998م.

العبد، فريال زكريا، الميزان في أحكام تجويد القرآن، دار الإيمان القاهرة الطبعة الثانية 2010م.

عباس، حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 1998م.

علي، أسعد أحمد، تهذيب المقدمة اللغوية لعبد الله العلايلي، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق الطبعة الثالثة 1985.

العموش، خلود، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، 1429-2008م.

فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، الجمهورية التونسية، الطبعة الأولى، 1986.

قطب، سيد إبراهيم حسين، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق بيروت، الطبعة الشرعية السابعة عشرة 1425 هـ-2004م.

قطب، سيد إبراهيم حسين، في ظلال القران، دار الشروق بيروت، الطبعة السابعة عشر1412 هـ.

قطب، سيد إبراهيم حسين، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق القاهرة، الطبعة السادسة عشرة 1427هـ - 2006م.

القاضي، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة، دار الكتّاب العربي، بيروت لبنان، بلا تاريخ.

القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان-الأردن، الطبعة الثالثة 1417-هـ -1996م.

المالقي، عبد الواحد بن محمد بن علي ابن أبي السداد الأموي، الدر النثير والعذب النمير، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2003م.